

الصورة الحقيقية والصورة المجازية في القرآن الكريم

عند سيد قطب

أ. كريمة محاي

جامعة بشار

الملخص:

عُرِف سيد قطب بنظرية التصوير الفني في القرآن، وكان لها صداها في الدراسات القرآنية من بعده. إن قراءته المتميزة للقرآن نابعة من نظره التصويرية التي جعلته يكتشف خبايا جمالية في النص القرآني. والتصوير عنده هو القاعدة الأساسية في التعبير القرآني؛ ذلك أن القرآن الكريم، في نظره، يعبر بالصورة عن كثير من مواضعه على اختلافها. ويمكن تمييز نوعين من الصور القرآنية من خلال قراءة سيد قطب الجمالية للقرآن، إحداها اصطلاحنا على تسميتها الصورة الحقيقية، وهي التي تعتمد في عرضها أساليب علم المعاني من تقديم وتأخير وحذف وذكر..، أما الثانية فهي ما أسميناها الصورة المجازية وهي التي تعتمد أساليب علم البيان من استعارة وكناية وتشبيه..

Résumé

Sayed Qutb était connu par une théorie qui a trouvé beaucoup de succès même après lui, la théorie de l'image artistique dans le coran. Sa lecture exceptionnelle du coran lui a permis de découvrir les secrets de la beauté des textes, et d'après lui l'image est une règle fondamentale dans l'expression coranique et le coran exprime beaucoup de thèmes différents par l'image .

On peut distinguer deux types d'images coraniques d'après la lecture de Sayed Qutb, le premier est l'image réelle, qui dépend de la présentation des sens comme envoi, suppression et dite. La deuxième ce qu'on appelle la métaphore, qui dépend des méthodes de connaissances, la déclaration et l'analogie .

الصورة من التصوير، وتأخذ معاني مختلفة، فالصورة صورة الوجه والصورة على البساط واللوحة، والصورة الفوتوغرافية والصورة في المجلة والتلفاز والسينما وقد تسمى على مشهدا. أما في الأدب، الصورة البيانية وسيلة يعتمدها الشاعر أو الكاتب لتقريب مفهومه للمتلقّي وإعطائه بعداً جمالياً وقد اهتم المذهب البياني الذي ظهر في النقد العربي قديماً بالصورة وجعل منها مظهرًا من مظاهر التجديد التي سادت في ذلك العصر وحاولوا إثباتها، « وقد كان النقاد قبل ظهور هذا المذهب يقيسون الأدب بما فيه من قوّة المعاني وفخامتها، ونبالة الأغراض، ما الألفاظ والأساليب فلم تتجاوز النظرة إليهما جانب الصحة والسلامة والدقّة في الأداء اللّغوي. »¹

عبد القاهر الجرجاني من الذين اهتموا بالصورة الشعرية اهتماماً مباشراً، فقد « اتخذ مصطلح الصورة في منهج عبد القاهر أبعاداً جديدة لم يبلغها غيره من سبقه من النقاد العرب، فوسع دلالاته حتّى يبدو أحياناً كأنّه يعد الصورة تحديداً للشعر وتعريفاً له (...). فقد وجد عبد القاهر في مصطلح الصورة حلاًّ لإشكاليّتين واجههما النّقد الأدبي العربي قبله هما المفاضلة بين اللّفظ والمعنى وتكرار المعاني عند الشعراء. »² وبقي مفهوم الصورة عند العرب يدور في هذا المجال لا يتعدّاه.

أخذت الصورة الشعرية عند علماء الغرب أبعاداً أخرى واختلف حدّها بين العلماء وقد ظهر الاتجاه إلى تعريف الصورة الشعرية بوصفها « حسّاً في النّظرية التي وضعها مجموعة الشعراء الإنكليز بين عامي 1912 و1917، وفي ممارساتهم الشعرية، وهي المجموعة التي عرفت باسم " التصويريين " وأبرزهم عزرا باوند. غير أنّ المنظر الحقيقي للحركة الذي تأثر باوند بأرائه هو الشاعر والنّاقدي. إي. هيوم الذي كان من أوائل الذين ثاروا في وجه الرومانطيقية بشكل منهجي من العقد الأول من هذا القرن. »³ ومثلما تعلّقت

مفهوم الصورة عند العرب بعلوم البلاغة تعلّق كذلك عند الغرب بالمجاز والاستعارة والرمز والأسطورة⁴.

سيّد قطب من الذين قرؤوا الفكر الغربي ونقده، ويبدو أنّه كان متأثراً بالمدرسة الرومانطيقية في بادئ الأمر، التي اعتنت بالصورة الشعرية في مباحثها، ويبرّر ذلك مقالاته النّقدية الأولى التي كانت تنشر في مجلّة المقتطف. وكان حديثها في الغالب حول التصوير الفنّي، وفي مقالة نشرها في المجلّة المذكورة تحدّث فيها عن المذاهب الأدبية أهمّها ما كان له اهتمام بالتصوير الفنّي (بيزو) في نهاية البحث مذاهب الأدب الأربعة: الكلاسيكية للرومانتيكية والرّمزية والواقعية. وأنّ التصوير الفنّي في القرآن ينجح إلى (الرّمزيّة ومانتيكية)، وفيه منه مشابهة كثيرة، وإن كان هو سابقاً لظهور هذا المذهب في أوروبا. «⁵ ومع تأثره هذا بالمدارس الغربية كان يكبر في عبد القاهر الجرجاني علميته وسبقه في علوم البلاغة.

تحدّث سيّد قطب كثيراً عن عبد القاهر الجرجاني لأنّه في نظره الرّجل الوحيد الذي تمكن من الوصول إلى جوهر النّظرية النّقدية التي كان بإمكانها أن تخرج النّقد العربي من متاهة اللّفظ والمعنى: «رجل واحد من الباحثين في البلاغة والإعجاز سابق للزخشي الذي ذكرناه هناك، بلغ غاية التوفيق المقدّر لباحث في عصره هو "عبد القاهر الجرجاني". فلقد أوشك أن يصل إلى شيء كبير في كتابه "دلائل الإعجاز" لولا أنقصّه "المعاني والألفاظ" ظلّت تخايل له من أوّل الكتاب إلى آخره فصرفته عن كثير ممّا كان وشيكاً أن يصل إليه، ولكنّه على الرّغم من ذلك كلّّه كان أنفذ حسّاً من كل من كتبوا في هذا الباب على وجه العموم، حتّى في العصر الحديث. «⁷

أمّا تعريفه للتصوير الفنّي فهو تعريف مطوّل افتتح به فصل التصوير الفنّي في كتابه المذكور أعلاه؛ إذ يقول: التصوير هو الأداة المفضّلة في أسلوب القرآن فهو يعبرٌ بالصورة المحسّنة، المتخيلة عن المعنى الذهني، والحالة النّفسية، وعن الحادث المحسوس والمشهد

جامعة بشار ————— مخبر الدراسات الصحراوية

المنظور وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة (...). فأمّا الحوادث والمشاهد والقصص والمناظر فيردها شاخصة حاضرة، فيها الحياة وفيها الحركة، فإذا أضاف إليها الحوار فقد استوت لها كل عناصر التخيل، (...) وهذه كلمات تتحرّك بها الألسنة، فتتم عن الأحاسيس المضمرة إنهمّ الحياة هنا وليست حكاية الحياة. ⁸

التصوير القرآني، إذن، ارتقاء بالصورة الجامدة إلى مصاف الكائنات الحية التي تعيش وتتفاعل وتؤثر. وقد اهتم سيد قطب بهذه الصور وحدد خصائصها ودرس حالاتها سواء كانت صوراً حقيقية أو مجازية.

الصورة الحقيقية:

الصورة الحقيقية، بالمفهوم العامي، صورة فوتوغرافية لشيء ما أو منظر ما، أو صورة مرسومة بريشة فنان تجسّد منظرًا حقيقيًا كما هو في الطبيعة وهو ما يسمى في الفن بالرسم الواقعي. والتصوير بمفهومه العلمي «أخذ الشيء من الطبيعة إلى اللاتبيعة، دون إضافة أو تجريد (في قالب حركي).. (و) الرسم: هو محاولة نقل الشيء من الطبيعة إلى اللاتبيعة (في قالب ساكن).» ⁹

والصورة الحقيقية في الأدب تعبير بالدلغة عن معنى من المعاني بطريقة فنية؛ أي بطريقة غير مباشرة يتم فيها استعمال "علم المعاني" (بالأخص) كأسلوب لتوصيل المعاني، وهي طريقة اعتمدها الأدباء العرب قديماً وحديثاً في أشعارهم، وهي تقوم على أساس الوصف، أي وصف أمر ما أو شيء ما بما فيه ولكن بأسلوب فني. غير أن النقد العربي لم يتناولها بالقدر الكافي كمفهوم علمي وإنما تعرض لها في إطار حديثه عن المجاز والأساليب البلاغية المختلفة وبالخصوص في أثناء اهتمامهم بقضية اللفظ والمعنى.

لقد ربط العلماء قديماً بين التصوير والمجاز، وصنفوا فيه كثيراً فوصفوا لموا تفصيلاً طويلاً والمجاز عندهم استعمال اللغة في غير ما وضعت له في الأصل وعبد القاهر الجرجاني من الذين اهتموا بالصورة الحقيقية ولكن في خضم حديثه عن المجاز والاستعارة؛ فهو يرى أن المجاز قرين الحقيقة « بسبب وجوده في التنزيل؛ يقول في ذلك: « ومن قدح في المجاز هم » أن يصفه بغير الصدق فقد خبط خبطاً عظيماً ويهدف لما يخفى» فصل¹⁰ لديه بين حقيقة ومعقول»¹⁰.

صنف سيد قطب التشخيص ضمن التصوير الحقيقي للأشياء والظواهر في الكثير من الأحيان. وهو لونٌ من ألوان التصوير الفني عنده. « ويفهم من كلام سيد قطب، أنه يرى أن التشخيص في القرآن يُحمل على الحقيقة لا على المجاز، يقول في حديثه عن الآية التي تشخص إذا ألقوا وجههم: ﴿مَعْوَاهَا شَهيقًا وَهِيَ تَكُولُهُمْ تَلَيَّزُ مِنْ الغَيْظِ﴾¹¹ (و جهنم هنا مخلوقة حية، تكظم غيظها فترتفع أنفاسها في شهيق وتفور، ويملاً جوانحها الغيظ، فتكاد تتمزق من الغيظ الكظيم، وهي تنطوي على بغض وكره يبلغ حد الغيظ والحق على الكافرين. والتعبير في ظاهره يبدو مجازاً تصويرياً لحالة جهنم. ولكنه، فيما نحس، يقرر حقيقة، فكل خليفة من خلائق الله، حية ذات روح من نوعها، وكل خليفة تعرف ربها وتسبح بحمده...»¹²

الصورة الحقيقية هي تلك التي تدفع بالمتلقي إلى رسم مشهد في مخيلته يكون حقيقياً معبراً أفتغدو الصورة لديه مرئية مسموعة، بعد أن كانت مكتوبة مقروءة وللخيال في هذا دور أساسي في تصوير المعاني لا يمكن إغفال كلور معني يرتسم في الخيال ليجسد صورة ما. التخيل ركن أساسي في نظرية التصوير الفني عند سيد قطب وللخيال دور مهم عنده في العملية الإبداعية من المبدع إلى المتلقي؛ يقول في هذا: « نحسب أن الخيال هو صلة ما بين الإنسان القاصر والحقيقة المحجبة، التي تدق على الأفهام فينبعث الخيال ليقترّب من هذه

الحقيقة. وهو في ناحية أخرى صلة ما بين الإنسان وآماله البعيدة التي لا يحققها له الواقع فيبعث إليها بشباك من خياله يدينها منه ويقربه إليها. ⁽¹³⁾.

فالصورة الحقيقية، إذن، تعتمد التصوير المباشر الذي يعتمد اللغة المباشرة ولكنه ما دام تعبيراً أدبياً فإن اللغة فيه تعتمد أساليب القول المعروفة في علم المعاني من تقديم وتأخير وحذف وذكر، وإيجاز لتوصيل المعنى جميلاً، يؤدي دور المتعة الفنية لدى المتلقي.

التمثيل أسلوب بلاغي آخر من أساليب التعبير العربي. اهتم عبد القاهر الجرجاني بدراسته في كتابيه «الدلائل» و«الأسرار» وقد مثل له بالقرآن والشعر العربي؛ وقد عرفه بأنه التعبير عن المعنى بمعنى آخر يكون حقيقياً لغايته في الواقع مع قرينة تربطه بالمعنى المراد. وهو بهذا تعبيراً عن ما في الأذهان بما هو في الأعيان، هو الأمر الذي فصّل فيه سيد قطب في نظرية التصوير الفني وعبر عنه بالتجسيم؛ أي تجسيم شيء معنوي في شيء مادي ملموس ومرئي للمتلقي. وهذا بيت يوضح فيه الجرجاني التمثيل وكيف أنه تصوير فني عن الحقيقة بالحقيقة، إنها صورة حقيقية فنية:

لَوْ لَأَشْتِ عَمَالُ النَّارِ فِيهَا مَا كَوَانُوا يُعْرَفُونَ * طِيبٌ عُرْفِ الْعُودِ .

وانظر هل نشر المعنى تمام حلتها، وأظهر المكنون من حسنه وزينته، وعطرك بعرف عوده وأراك النضرة في عوده، وطلع عليك من مطلع سعوده، واستكمل فضله في النفس، ونبله واستحق التقديم كله إلا بالبيت الأخير وما فيه من التمثيل والتصوير. ⁽¹⁴⁾ فالتمثيل يجعلك مشاهداً وسامعاً

وحاضراً فيفقه المتلقي المعنى كاملاً زيادة على الجمال الفني الذي يتذوقه من البيت

الشعري والفائدة التي يحظى بها. ويقول الجاحظ في بيت المتنبي القائل:

مَنْ يَكُ وَذَا فَمِ مَرٌّ مَرٌّ يَحْضِدُ * * * بِهِ الْمَاءَ الزُّلَّالَ .

لو كان سلك بالمعنى الظاهر من العبارة كقولك: إن الجاهل الفاسد الطبع يتصور المعنى بغير صورته يخيل إليه في الصواب أنه خطأ. هل كنت تجد هذه الروعة؟ وهل كان يبلغ من وقم الجاهل ووقذه وقمعه وردعه والتهجين له والكشف عن نقصه، ما بلغ التمثيل في البيت وينتهي إلى حيث ينتهي»¹⁵

إن الحديث عن التمثيل في مجال الصورة الحقيقية مردّه إلى الاتصال الوثيق بين التمثيل والحقيقة- مثلاً ذهب إلى ذلك الجرجاني - وهو كذلك ما يستكشفه القارئ لكتاب «التصوير الفني في القرآن» ذلك أن سيد قطب تحدث كثيراً عن التجسيم والتشخيص فصدّل فيهما كثيراً ومثل لهما من القرآن الكريم ليثبت نظريته. يقول في قوله ﴿لَعَلَّكَ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ «يُنْفِ قُمُونَ» «سَبِيلَ اللَّهِ كَمَا سَبَّلَ حَبَّةٌ أَنْبَتَتْ كُلَّ بَيْعٍ سُبُلًا قَابِلًا مِنْ فَايَةِ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ»¹⁶ (...) إنه يستجيش المشاعر والانفعالات الحية في الكيان الإنساني كله.. إنه يعرض صورة من صور الحياة النابضة النامية المعطية (...) إن المعنى الذهني للتعبير ينتهي إلى عملية حسابية تضاعف الحبة الواحدة إلى سبعمائة حبة؟ أما المشهد الحي الذي يعرضه التعبير فهو أوسع من هذا وأجمل وأكثر استجابة للمشاعر، وتأثيراً في الضمائر..»¹⁷ والتمثيل بهذا الشكل كثير في القرآن لم يهمله صاحب "التصوير الفني" في كتاباته في كل مرّة فإك يركز على التأثير النفسي للصدور والظلال القرآنية على نفس المتلقي.

تجعل الصورة الحقيقية في القرآن من المتلقي مشاهداً للحدث أو المعنى المراد، زيادة على الفائدة المرجوة. والمشاهدة تثبت المعنى لدى المتلقي أكثر من غيرها ويمثل الجرجاني لذلك بقوله: «ولو أن رجلاً أراد أن يضرب لك مثلاً في تنافي الشئيين فقال: هذا وذلك هل يجتمعان؟ وأشار إلى ماء ونار حاضرين وجدت لتمثيله من التأثير ما لا تجده إذا أخبرك بالقول فقال: هل يجتمع الماء والنار؟ وذلك الذي تفعل المشاهدة من التحريك للنفس،

جامعة بشار ————— مخبر الدراسات الصحراوية

والذي يجب بها من تمكن المعنى في القلب، إذا كانت مستفادة من العيان ومتصرفه حيث تتصرف العينان»¹⁸

قد يكون التعبير في القرآن الكريم مباشراً لوكن نظمه المعجز يجعل منه موحياً مصوراً

لمشاهد يعجز الإنسان عن الإتيان بمثله، هذه المشاهد التي جعل منها سيد قطب مادة

دراسته، وهي صور حقيقية وفي القرآن: ﴿لَقَدْ قُولُوا بِتَعَالَى اللَّهِ الْقَوَاعِدَ مِنْ الْبَيْتِ

مَا عَمِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مَا نَأْتِيكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿127﴾ لَمَّا بَيْنَكَ وَمَنْ ذُرِّيَّتَهُ نَأْتِيكَ بِمَنَاسِكٍ لَكَ تَخْلُقُ وَأَنْتَ تَبْنَاهُ وَمَعَلَيْكُمْ عِلْمُكُمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ

الْحَكِيمُ ﴿128﴾ وَابْعَثْ

مَنْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَلَوْ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَهُمْ الْكُتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيَهُمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ

الْحَكِيمُ ﴿129﴾. ¹⁹

لقد انتهى الدعاء، وانتهى المشهد، وأسدل الستار. هنا حركة عجيبة في الانتقال من

الخبر إلى الدعاء هي التي أحيت المشهد وردته وحاضراً فأجمع: ﴿رَأَاهُ يَمُومُ الْقَوَاعِدَ

مِنْ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ ﴿127﴾ كان كإننا الإعجاز هو الإشارة برفع الستار ليظهر المشهد: البيت

وإبراهيم وإسماعيل، يدعوان هذا الدعاء الطويل. وكم في الانتقال هنا من الحكاية إلى الدعاء

من إعجاز فني بارز، يزيد وضوحاً لو فرضت استمرار الحكاية ورأيت كم كانت الصورة

تنقص لو قيل: إذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل يقولان: ربنا... إلخ. إنها في هذه

الصورة حكاية، وفي الصورة القرآنية حياة وهذا هو الفارق الكبير. إن الحياة في النص لتشب

متحركة حاضرة وسر الحركة كله في حذف لفظة واحدة.. وذلك هو الإعجاز. ²⁰

نظم القرآن المعجز هو الذي يجعل من المتلقي ينتج صوراً متحركة في خياله نابضة

بالحياة وصوراً ساكنة تحييها الألوان انطلاقاً من تعابير مباشرة في لغتها لا تحوي مجازاً ولا

أساليب بيانية لتعطيها بعدها التصويري والأمثلة من هذا النوع كثيرة.

ومن منطلق أن القرآن صالح لكل زمان ومكان ويخاطب كل البشر على اختلاف الأجناس والألوان نجد للآيات تفسيرات تختلف في كل مرة، ولكنها كلها صالحة وموجهة لهذا الإنسان لتنظم له حياته. والقارئ للقرآن تأخذ مخيلته تلك التعابير الموحية التصويرية فيخرج، في كل مرة، منه بقراءة جديدة أكثر إيجاءً وأكثر تصويراً.

يطرق التصوير القرآني كل المواضيع وكل المجالات فلا يقتصر على مجال دون الآخر، وأهم الحالات التصويرية في القرآن تصوير الحال: حال البشر؛ حال الخائف، حال الهادي المطمئن، حال الكافرين وحال المسلمين في شتى الأزمنة، حال الإنسان في أحداث معينة في الزمان والمكان فيختلف التصوير من حال إلى حال ويجسد تلك الأحوال تجسيدا يجعلها مسموعة مرئية.

أَلَا إِنَّهُمْ يَخْتَفُونَ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢١﴾ لَيْسَ تَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ
عَمَلَهُمْ مِمَّا يَسِرُّونَ وَمِمَّا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَدَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٢﴾. لعل نص الآية إنما
يصور حالة واقعة كانت تصدر من المشركين ورسول الله، صلى الله عليه وسلم، يسمعهم
كلام الله، فيثنون صدورهم ويظأطئون رؤوسهم استخفاء من الله الذي كانوا يحسون في
أعماقهم أنه قائل هذا الكلام.. وذلك كما ظهر منهم في بعض الأحيان؟ ولا يكمل السياق
(كذا) الآية حتى يبين عبث هذه الحركة، والله، الذي أنزل هذه الآيات، معهم حين يستخفون
وحين يبرزون. ويصور هذا المعنى، على الطريقة القرآنية، في صورة مرهوبة، وهم في وضع
خفي دقيق من أوضاعهم. حين يأوون إلى فراشهم ويخلون إلى أنفسهم، والليل لهم ستار
وأغطيتهم لهم ستار. ومع ذلك فالله معهم من وراء هذه الأستار حاضر ناظر قاهر. يعلم في
هذه الخلو ما يسرون وما يعلنون²²

تعرض سيد قطب لكثير من الحالات المصورة في القرآن، وهي، على بساطتها في
التعبير - تحمل معاني كبيرة إذا ما شوهدت من خلال منظر مصور أو بمعنى آخر إذا ما قرئت

جامعة بشار ————— مخبر الدراسات الصحراوية

من زاوية تصويرية قراءة متدبرة بخيال مصوّر. وقراءة سيد قطب للقرآن من الزاوية التصويرية مكنته من إمطة اللثام عن كثير من المناظر الباهرة في القرآن فائقة في التصوير وخرقة في الجمال والمتعة الفنية، عميقة التأثير في نفوس المتلقين.

الصورة الحقيقية متواجدة في القرآن، وقد جاءت لتبليغ المتلقي وهدايته وإمتاعه وتنبهه إلى مواطن الجمال في نفسه وفيما حوله وبالتالي في ربه؛ خالق الكون البديع.

الصورة المجازية:

عبر علماء العرب القدامى عن الصورة المجازية بلفظ "المجاز" عموماً، وقد ورد في كتابات العديد من البلاغيين تعبيراً عن الوجوه البلاغية وما تؤديه من دور في هذا المجال؛ غير أن لفظ "الصورة" لم يقترن بالمجاز، بمفهومه الحديث، بغض الطرف عن حديث الجرجاني عن التصوير والتزييق والزخرفة حين دراسته للبلاغة وأصربها.

والمجاز لغة « مصدر جزت مجازاً، ومعنى المجاز طريق القول ومأخذه وجزت تعديت. (...) ويقول عنه ابن الأثير في "المثل السائر": "وأما المجاز فهو ما أريد به غير الموضوع له في أصل اللغة، وهو مأخوذ من جاز من هذا الموضع إلى هذا الموضع إذا تخطاه إليه"»²³

ينقسم المجاز حسب علماء البلاغة أقساماً: مجاز لغوي، ومجاز عقلي، ومجاز مرسل،... وقد تختلف المصطلحات بين العلماء للمعنى الواحد، وتعريف المجاز وأنواعه موجود في المعاجم البلاغية على اختلافها فقد زحرت به كتب البلاغة لما له من أهمية في مجال العربية تخصصت صاتها²⁴. ويقسم القزويني المجاز قسمين يعد أحدهما الاستعارة فيقول: « والمجاز ضربان: مرسل واستعارة لأن العلاقة المصححة إن كانت تشبيه معناه بما هو موضوع له فهو استعارة، وإلا فهو مرسل.. »²⁵

إن الصورة المجازية في القرآن ذات أهمية خاصة تختلف عنها في فنون القول البشرية ونتيجة لهذه الأهمية اختلف العلماء قديما حول المجاز في القرآن كل حسب مشاركته واتجاهاته، فمنهم من أثبت المجاز في القرآن ومنهم من نفاه عنه ومنهم من توسط في مذهبه.

ونظراً للاختلاف الذي وقع بين العلماء في قضية إثبات المجاز للقرآن أو نفيه عنه فإن عبد القاهر الجرجاني ردّ بشدة على أولئك الذين ينفون المجاز عن القرآن، وقدّ المجاز أسلوباً عربياً، حقيقياً صادقاً لا مجال للكذب فيه « ويأتي بحثه للتخييل في إطار مناقشته مسألة الصدق والكذب في الشعر فيربط التخييل بالكذب ويفصل فصلاً قاطعاً بينه وبين المجاز الذي لا يخرج عنده عن الصدق لارتباطه بما يدعوه بالحقيقة. وأما التخييل فبعيد عن الحقيقة، إنه خداع للعقل وضرب من التزييق»²⁶

إن التمثيل والتخييل مصطلحين ظهرا في النقد العربي القديم يقتربان من مفهوم الصورة اليوم وقد ورد في سابقا أن التمثيل يصنف ضمن الصورة الحقيقية حسب تعريف الجرجاني له وقد يدخل التخييل بمفهومه القديم ضمن الصورة المجازية.

والتمثيل صورة حقيقية تحدث عنه الجرجاني في « دلائل الإعجاز » كثيراً ورأى أنه القريب من الاستعارة فيكون تمثيلاً مجازياً يعرفه بقوله: « وأما التمثيل الذي يكون مجازاً لمجئتك به على حدّ الاستعارة فمثاله قولك للرجل يتردد في الشيء بين فعله وتركه: أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى، فالأصل في هذا أراك في ترددك كمن يقدم رجلاً ويؤخر أخرى ثم اختصر الكلام وجعل كأنه يقدم الرجل ويؤخرها على الحقيقة. »²⁷

وتصبح الصورة مجازية إذا تغير تركيب الكلام عن وضعه الطبيعي، وكل تغير في التركيب اللغوي، مهما كان بسيطاً، يؤدي حتماً إلى تغير الدلالة، وفي هذا التغير تتكون الصورة المجازية. وقد اهتم سيد قطب بالصورة المجازية في الخطاب القرآني. وصنف ضمنها أنواعاً من الأساليب التصويرية، منها التشخيص الذي يعرفه بقوله: « لون من ألوان »

التخييل « يمكن أن نسميه « التشخيص » يتمثل في خلع الحياة على المواد الجامدة والظواهر الطبيعية، والانفعالات الوجدانية (...). وتهب لهذه الأشياء كلها عواطف آدمية وخلجات إنسانية تشارك بها الآدميين (...). وتجعلهم يحسون الحياة في كل شيء تقع عليه العين أو يتلبس به الحس فيأمنون بهذا الوجود أو يرهبون، في توفز وحساسية وإرهاف. »²⁸

و هو تعريف يشابه إلى حد ما تعريف عبد القاهر الجرجاني لأحد أنواع التخييل: « بيان ذلك أنهم يستعيرون الصفة المحسوسة من صفات الأشخاص للأوصاف المعقولة، ثم تراهم كأنهم قد وجدوا تلك الصفة بعينها وأدركوها بأعينهم على حقيقتها. »²⁹

كان لسيد قطب نظرة اتجاه المجاز بعيداً عن القرآن وذلك من خلال دراساته النقدية حول الشعر في كتابيه « مهمة الشاعر في الحياة » و « النقد الأدبي أصوله ومناهجه » ويعد الشعر شعراً بما فيه من مجاز نابع من أعماق الشاعر ممتزجاً بمشاعره وعواطفه بعيداً عن الكلام العامي المبذل والمباشر. تحدث سيد قطب في هذا المجال عن التصوير المجازي وتبرز نظريته التصويرية التي عهدناها في « التصوير الفني في القرآن »، يقول: « والتصوير الحسي يبلغ درجة الفن العالي حين لا يجمد عند الصور الحسية، بل يدع للخيال سبيلاً للعمل حول هذه الصور، يتدرج منه إلى التأثر الوجداني. وهذا الشاعر السوري « فؤاد الخطيب » يصف بلداً أثريا بقوله:

بَلْكَذَا كِدَا دَقَّ لَمَلُ فُطُولٍ مِنْ أَلِ** زَقُّ الْأَوْصَالِ .

فَهُنَا الصُّخُورُ عَلَى الصُّخُورِ تَحَطُّهُنَّكَ** وَحَقِّيقَةٌ كَخَيْمَالِ .

(...) هذه صورة حسية لا تقف عند الحس الجامد بل تدع للخيال أن يتصور اليد

تدفع هذا البلد من قتل الجبال، فيخر ممزق الأوصال... »³⁰

الشعر عند سيد قطب هو ذلك الشعر الذي يحرك الوجدان والخيال لدى المتلقي، والذي يدفع به إلى التفاعل مع النص لإنتاج تجربة جمالية فذة، فهو لا يعني بالتصوير الحسي

أن تأتي بالصور الحسية جامدة بعيدة عن وجدان الشاعر وأحاسيسه منقطعة عن المتلقي وإنما يراه كلا متكاملًا يخاطب العقل والخيال والحس والوجدان ولا يرى في الشعر أن يكون شعراً مباشراً وإنما يفضل أن يكون صعب المنال يثير الخيال ويدفع بالمتلقي إلى التدبر والتفكير.

عماد الصورة المجازية الخيال، فهو الذي ترسم فيه الصورة، ذلك أنها بعيدة عن الواقع لأنه ليس لها وجود فيه. وإنما الخيال هو الذي يرسمها ويعطيها أبعادها، خاصة إذا كان الخيال مبدعاً. وبهذا اهتم سيد قطب بمصطلح التخيل وجعله أساس عملية التصوير الذهنية سواء كانت حقيقية أو مجازية؛ فالعملية التصويرية، بكل أبعادها، تحدث في ذهن المتلقي، تتفاوت درجات العملية التخيلية من متلقٍ لآخر تبعاً لطبيعة خيال المتلقي وتبعاً لطبيعة النص المبدع كذلك.

قسم سيد قطب التصوير المجازي قسمين هما: التخيل الحسي والتجسيم. والمتأمل لهذين المصطلحين يرى للوهلة الأولى أنهما متقاربان في المفهوم، إذا لم يكونا متطابقين، وسيد قطب في واقع

الأمر فرق بينهما تفريقاً دقيقاً، وعدّهما الأساس في عملية التصوير: « حينما تقول: إن التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن، والقاعدة الأولى فيه للبيان؛ لا نكون قد انتهينا من الحديث عن هذه الظاهرة الشاملة. فإن وراء ذلك بقية تستحق أن نفردها لهذا الفصل الخاص.³¹ » والفصل الخاص الذي أفرده سيد قطب لهذا الأمر هو فصل التخيل الحسي والتجسيم. وأهم لون من ألوان التخيل الحسي سماه التشخيص، وإذا تتبع القارئ تعريف سيد قطب لكل من التشخيص والتجسيم يجد الفرق الدقيق الذي يراه فاصلاً بينهما.

عرّف سيد قطب التشخيص بقوله: « لون من ألوان « التخيل » يمكن أن نسميه « التشخيص » يتمثل في خلع الحياة على المواد الجامدة، والظواهر الطبيعية، والانفعالات الوجدانية (...) وتنب هذه الأشياء كلها عواطف آدمية، وخلجات إنسانية، تشارك بها

جامعة بشار ————— مخبر الدوايمة الصحراوية

الآدميين (...) وتجعلهم يحسون الحياة في كل شيء تقع عليه العين. أو يتلبس به الحس،
فيأنسون بهذا الوجود أو يرهبونه، في توفز وحساسية وإرهاف»³²

تعريف سيد قطب هذا، تعريف حدائي للاستعارة التي حفلت بها كتب البلاغيين
وبتحليلها وتصنيفها، وقد سبق الحديث عنها وعن المجاز، لكنه هنا يعطيها بعداً حيويّاً
تصويرياً مبتعداً عن استعمال المصطلحات.

والتجسيم عند سيد قطب استعارة كذلك بالمصطلح البلاغي ولكنه يختلف عن
التشخيص في أن له خصائص تميزه شكلاً لكن لها الهدف نفسه: « ولكن الذي نعنيه هنا
بالتجسيم، ليس هو التشبيه بمحسوس، فهذا كثير معتاد، إنما نعني لونا جديداً هو تجسيم
المعنويات، لا على وجه التشبيه والتمثيل بل على وجه التصيير والتحويل»³³، الفرق بين
التشخيص والتجسيم هو التصيير

والتحويل فالعلاقة ليست علاقة تشبيه.

التشبيه ← تشبيه الشيء بالشيء لوجود علاقة مشابهة بينهما. (علاقة على
وجه التشبيه). ← التجسيم ← وصف الشيء بالشيء لوجود علاقة تحويل. (علاقة على وجه التصيير ← والتحويل)

مَثَلُ الذِّينِ مَكَلِّينَ يُقَالُ لِرَبِّعَلِيٍّ: ﴿أَعْمَاهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ يَوْمَ
عَاصِفٍ﴾³⁴

المعنى: صارت أعماهم رماداً تذهب به الريح.

فمن الناحية البلاغية (أعماهم كرماد) تشبيه يتوفر فيه المشبه والمشبه به وأداة التشبيه،
أما سيد قطب فيعده تجسيمياً؛ ذلك أن المضمون المعنوي صار مادياً محسوساً، ومرئياً.
والتصوير بمفهومه الحديث يكون أكثر اقتراباً من التجسيم، فتوليد الصورة «.. لا يخرج عن

إطار تصغير الشيء أو تحويله من شيء إلى شيء... أو بناء الشيء على أنقاض الشيء، وتدخل هنا عملية التحجيم أو إخراج الشيء من الشيء، كالتوليد الذي يوصلنا إلى نظرية توليد الصورة من الصورة.³⁵

ولقد تحدث القدماء عن هذا التجسيم ولكن تعبيراً عن الاستعارة، لأنها تتوفر بكثرة في الشعر الجاهلي في مثل حديثهم عن امرئ القيس: « وقد تحصل الغرابة بالجمع بين عدة استعارات لإلحاق الشكل بالشكل، كقول امرئ القيس: الطويل.

فَقَدَّتْ لَهُ لَمَّا تَمَطَّى بِبَصْرِ لَدَيْهِ * فِدَا عَجَبَ لَمَّا وَبِكَ لَمَّا كَلِمَلِ .

أراد وصف الليل بالطول؛ فاستعار له صلباً تمطى به، إذا كان ذي صلب يزيد في طوله عند تمطيه بشيء، وبالغ في ذلك أن جعل له أعجازاً يردف بعضها بعضاً، ثم أراد أن يصفه بالثقل على قلب ساهره، والضغط لمكابده؛ فاستعار له كلكلاً ينوء به. أي يثقل به. وقال الشيخ عبد القاهر: لما جعل ليل صلباً تمطى به، ثنى ذلك فجعل له أعجازاً قد أردف بها الصلب، وثلاث فجعل له كلكلاً قد ناء به فاستوفى له جملة أركان الشخص، وراعى ما يراعى الناظر من سواه إذا نظر قدامه، وإذا نظر خلفه وإذا رفع البصر ومدته في عرض الجو.³⁶

ومن أمثلة التشخيص القرآني عند سيد قطب: « ويريد أن يبرز المعنى: أن الله وحده يستجيب لمن يدعو، وينيله ما يرجوه؛ وأن الآلهة التي يدعوها مع الله لا تملك لهم شيئاً، ولا تنيلهم خيراً، ولو كان الخير قريباً، في رسم لهذا المعنى هذه الصورة العجيبة: ﴿وَدَعَا الْحَقُّ

وَدَعَا الْحَقُّ تَوَجَّاهُ وَيُنَادِيهِمْ وَيُجِيبُهُمْ وَنَادَى إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَهُ وَيَمَّا هُوَ غَائِبٌ وَمَادُّعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٣٧﴾

وهي صورة تلح في الحس والوجدان، وتجذب إليها الالتفات، فلا يستطيع أن يتحول عنها إلا بجهد ومشقة، وهي أعجب الصور التي تستطيع أن ترسمها الألفاظ: شخص حي

جامعة بشار ————— مخبر الدراسات الصحراوية

شاخص باسط كفيه إلى الماء. والماء منه قريب، يريد أن يبلغ فاه، ولكنه لا يستطيع، لئلا يمدّ
مدّة فربما استطاع.»³⁸

فصل سيد قطب في التخيل الحسي " فأدرج فيه أنواعاً أو (ألونا) من التخيل اكتشفها
في القرآن الكريم. منها: تصوير المعاني المجردة والحالات النفسية والمعنوية في صور متحركة:

وَمِنْ وَالتَّالِي عَلَى ذَلِكَ تَهْلِكُ تَعَالَى عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ
تَهُ فِتْنَةٌ أَنْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ﴿٣٩﴾

ومن ألوان التخيل عنده الحركة المتخيلة: وموهبة قوله متعلل إلى ﴿ مَا عَمَّهُ لُؤَامٍ مِنْ

عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا ﴾⁴⁰، وركز سيد قطب على كلمة (قدمنا)؛ إذ أنها تمنح الصورة

حركة تخيلية لا تمنحها كلمة غيرها. ومن ألوان التخيل الحسي أيضا الحركة الممنوحة لما من

شأنه السكون: ومثاله قوله متعلل ﴿ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾⁴¹

أما التجسيم فمن أمثله عند سيدي قطب: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ لَهَا هَنْ خَيْرٌ

مَا عَمَلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ﴾⁴² (...) فيجعل كأن هذا

العمل المعنوي مادة محسوسة. تحضر (على وجه التجسيم) أو تحضر هي (على وجه

التشخيص) أو توجد عند الله كأنها وديعة تسلّم هنا فتسلم هناك. وقريب من هذا تجسيم

الذنوب كأنها أعمال (تحمل على الظهور زيادة في التجسيم): ﴿ تَوَفَّأَوْ زَارَهُمْ عَلَى

ظُهُورِهِمْ ﴾⁴³،⁴⁴

يرجع سيد قطب الإعجاز في التصوير القرآني سواء كان حقيقة أو مجازاً إلى أسرار

خفية لا يعلمها إلا الله ويبرز الفرق بينها وبين الصور البشرية؛ إذ أن وسيلة كل منهما وسيلة

لغوية ولكن الاختلاف يكمن في أن التصوير القرآني حي معجز والتصوير البشري يبقى

قاصراً مهما بلغ من درجات التفوق والرقى: «إذا ما ذكرنا أن الأداة التي تصوّر المعنى

الذهني والحالة النفسية وتشخص النموذج الإنساني أو الحادث المرويّ، إنّما هي ألفاظ جامدة لا ألوان تصوّر، ولا شخوص تعبر، أدركنا بعض أسرار الإعجاز في هذا اللون من التعبير القرآني. ⁴⁵

والمثير للانتباه في طريقة سيد قطب في دراسة الصورة القرآنية، ابتعاده عن التعبير البلاغي وانتقاصه منه في أكثر من موضع فهو لا يؤدي الغرض الجمالي - بالنسبة إليه، بقدر ما يؤدي الغرض التعليمي. المهم عند سيد قطب هي حركة الصورة وحيويتها ومدى تأثيرها في المتلقي. والجديد في التعبير القرآني أنه جمع بين التخيل والتفكير. أي أنه يقوم بإيصال الأفكار الذهنية للمتلقي بطريقة جمالية فنية.

الهوامش:

- 1- العربي حسن درويش، النقد العربي القديم. مقاييسه واتجاهاته وقضاياها وأعلامه ومصادره، ص 48-49.
- 2- ريتا عوض، بنية القصيدة الجاهلية. الصورة الشعرية لدى امرئ القيس، ص 71.
- 3- ريتا عوض. المرجع السابق، ص 53-52.
- 4- نفسه، ص 41.
- 5- ينظر صلاح عبد الفتاح الخالدي. نظرية التصوير الفني عند سيد قطب، ص 113. نقلا عن مجلة المقتطف. المجلد 94 ج 02. فبراير 1939، ص 207.
- 6- نفسه، ص 113.
- 7- سيد قطب. التصوير الفني في القرآن، ص 31.
- 8- سيد قطب. المرجع السابق، ص 31.
- 9- محمد أوزينة. التصوير بالكلمات. نقد، ص 07.
- 10- ريتا عوض. المرجع السابق، ص 76. نقلا عن أسرار البلاغة، ص 365.
- 11- سورة الملك، الآية: 07-08.
- 12- صلاح عبد الفتاح الخالدي. نظرية التصوير الفني عند سيد قطب، ص 136. نقلا عن " في ظلال القرآن"، 06/3634-3635.
- 13- سيد قطب. مهمة الشاعر في الحياة، ص 40.

- 14- عبد القاهر الجرجاني. أسرار البلاغة، ص 100.
- 15- نفسه، 100.
- 16- سورة البقرة، الآية: 261.
- 17- سيد قطب. في ظلال القرآن، 01/ 306.
- 18- عبد القاهر الجرجاني، المرجع السابق، ص 106-107.
- 19- سورة البقرة، الآية: 127-129.
- 20- سيد قطب. التصوير الفني في القرآن، المرجع السابق، ص 57.
- 21- سورة هود، الآية: 05.
- 22- سيد قطب. في ظلال القرآن، المرجع السابق، 04، 1855-1856.
- 23- إنعام فوال عكاوي. المعجم المفصل في علوم البلاغة، ص 237.
- 24- نفسه، ص 239.
- 25- الخطيب القزويني. الإيضاح في علوم البلاغة، ص 265.
- 26- ريتا عوض. المرجع السابق، ص 83.
- 27- عبد القاهر الجرجاني. دلائل الإعجاز، ص 54.
- 28- سيد قطب. التصوير الفني في القرآن، المرجع السابق، ص 73.
- 29- عبد القاهر الجرجاني. أسرار البلاغة، المرجع السابق، ص 262-263.
- 30- سيد قطب. مهمة الشاعر في الحياة، المرجع السابق، ص 27-29.
- 31- سيد قطب. التصوير الفني في القرآن، المرجع السابق، ص 71.
- 32- نفسه، ص 73.
- 33- سيد قطب. التصوير الفني في القرآن، المرجع السابق، ص 79.
- 34- سورة إبراهيم، الآية: 18.
- 35- محمد أؤذينة. المرجع السابق، ص 07.
- 36- الخطيب القزويني. المرجع السابق، ص 288-289.
- 37- الرعد: 14.
- 38- سيد قطب. التصوير الفني في القرآن: 41.
- 39- سورة الحج، الآية: 11.
- 40- سورة الفرقان، الآية: 23.
- 41- سورة مريم، الآية: 04.
- 42- سورة آل عمران، الآية: 30.

43- سورة الأنعام، الآية: 31

44- سيد قطب. التصوير الفني في القرآن، المرجع السابق، ص 80.

45- سيد قطب. التصوير الفني في القرآن، المرجع السابق، ص 37.

